هل للمعرفة طريق باطنية ؟

للأستاذ الفيلسوف فريد بك وجدى

كتبنا فى الجزء الأول من هـذه المجلة النافعة مقالا تحت عنوان « مسألة المعرفة » وقد عالجناها على الأسلوب الفلسفى المقرر ، ولكن هذا الموضوع أثار لدينا مسألة أخرى ، وهى هل للمعرفة طريق غير طريق الحواس الخمس ؟ و بعبارة أخرى هل تصل للانسان معارف من طريق باطنى غير الطريق الخارجى المعروف ؟

اختلف الفلاسفة قديماً وحديثاً فى هـذه المسألة على فرقتين . فقرر الماديون منهم ، بأن لاطريق للمعرفة إلا الحواس الخمس المتصلة بالعالم الخارجى وأن لا مصدر لأية معرفة غيره ، إذ لا يوجد عالم فوقه تتأدى منه معارف صحيحة ، غير الخيال البحت

وذهب الروحانيون من الفلاسفة ، إلى أن للمعرفة طريقا باطنية أخرى ، تصل بين نفس الانسان والعالم الروحانى ، يدركها الذين يعملون على تخلية نفوسهم من القواطع المادية ، فيحصلون من هذا الطريق على معارف قيمة تعلو عن متناول سواهم من الواقفين مع الظواهر ، ومن هذا القبيل معارف الأنبياء والمرسلين ، ومن اتبع تعاليمهم من المتصوفة والمتبتلين ، وقد غصت بها تواريخ الشعوب ، بل قامت عليها فرق ومذاهب ، لا تزال تتوزع النوع البشرى بأسره إلى اليوم .

هذه المسألة تتصل بمسألة الوحى وما إليه ، ولسنا هنا بسبيل إثبات صحته ، فالكلام فيه يتشعب ويطول ، ولكنا بسبيل البحث عن مسألة الطريق الباطنى للمعرفة من ناحية صحتها أو بطلانها ، وكذلك نقصر الكلام عليها فنقول :

أصبحت الطريق الباطنية للمعرفة ، بعد اكتشاف النوم المغناطيسى ،

من الأمور التى يمكن الاستدلال عليها ، بالتجربة على الأسلوب العملى البحت ، فكلنا يعرف ما يردده علماء النفس والباحثون فى النوم المغناطيسى ، من كلمة العقل الباطنى ، فقد أصبح هذا العقل الباطنى من الأمور المشاهدة ، إلى حد أن إنكارها أصبح مما لا يطمع الماديون فيه ، فكيف نرى هذا العقل الباطنى وما هو فى حقيقته ؟

أما كيف نراه فرؤيته من أيسر الأمور وذلك أن ينوم أمامك أى إنسان فتجده عند ماتتعطل حواسه العادية و يقع فى النوم فعلا ، قد تقمص شخصية أرقى من شخصيته ، شخصية عاقلة رزينة ، واعية لتفصيلات تاريخه الماضى ، بحيث لا يغيب عنها أدق دقيق منها ، و إذا بحثت فى خصائص هذه الشخصية من قرب ، وجدت أنها هى التى تدبر حركات أعضائه وأجهزته ، وترمم ما يفسد منها بأيتائه بمقوماتها ، وتدبر حياته الجسدية والعقلية تدبيرا محكما وهو غافل عن ذلك يرتكب فى جمحاته و إفراطاته ما يفسد نظامها ، و يفرق وحدتها ، وقد شوهد أن هذا العقل لا يتأثر من إصابات الجسد ، كما تتأثر الشخصية العادية ، فأذا أصاب أحدنا مرض فى بعض أجزاء مخه ، تأثرت لذلك خصائصه العقلية على نسبتها ، ولكن العقل الباطنى يظل سليما فى جميع أدوار الأصابات المخية ، فيبقى حافظا لجميع ميزاته ، كأنه مستقل عن الجسد استقلالا تاما ، فأذا أصاب المخ مرض فأضاع الذاكرة كلها أو بعضها ، أوفقد صاحبه القدرة على قراءة الأحرف كلها أو بعضها كما يحدث فى بعض الحالات ، وأنيم هذا المصاب نوما مغناطيسيا وجـــدت عقله الباطنى سليما حاصلا على جميع خصائصه وقد يسأل فيدل على مرض صاحبه دلالة تعلو عن متناول أدق تشخيص طبى

وقد شوهد أن لهذا العقل الباطنى اتصالا بالأرواح المجردة فأذا أنمت شخصا نوما مغناطيسيا ، وسألته أن يتصل بقريب له من الذين ماتوا ، لم يتكلف لذلك كبير عناء ، ويأتيك عنه بصادق الأنباء

ومن أغرب الأمور أن لهذا العقل الباطنى خصائص أعم من خصائص العقل العادى ، فهو يعرف كل مايحول بالعقل العادى ، ويذكر مايحصله من المعلومات ، على حين أن العقل العادى يجهل وجود العقل الباطن ، ولا يذكر من حياته الباطنية شيئا

وقد ثبت من استقراء أحوال النفوس أن الألهامات الصالحة التى يحس بها الأنسان فى نفسه متى اعتركت فيها نزعتان : (نزعتا الخير والشر) شوهد أن مصدرها هذا العقل الباطن ، حتى ذهب بعضهم أن وحى الأنبياء هو من إلهامات عقولهم الباطنة ، وليس هنا موطن تحقيق هذا القول فندعه حتى حين

من أعجب مظاهر المعرفة الحاصلة من طريق العقل الباطنى ، ماعنى بجمع طائفة منه علماء كثيرون ، من أشهرهم الأستاذ الكبير فريدريك ميرس FR. MYERS مدرس علم النفس بجامعة كمبردج فى كتابه (الشخصية الأنسانية) HUMAN PERSONALITY فقد ذكر منهم الحاسبين على البديهة ، وهم طائفة من الناس تلقى عليهم أعوص المسائل الرياضية التى تحتاج لزمن طويل فى التفكير والعمل فيجيبون عليها على الفور وهم لايدرون كيف وجدت هذه الحلول فى نفوسهم ، فقال : كان المستر (بيدلر) يجد لوغارتم عدد مؤلف من سبعة أو ثمانية أرقام على البديهة ، أى يجد العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت مثل هذا المجموع الضخم

ونقل الأستاذ ميرس عن المطران الأنجليزى (واتلى) أن كتب عن نفسه يقول « إن فى خاصتى الحسابية شيئا من الميزة فأنها ظهرت فى وأنا بين الخامسة والسادسة من عمرى ودامت معى ثلاث سنين ، ولما بلغت السن التى بدأت فيها الدراسة زالت هذه الخاصة منى ، فكنت فى ذلك الحين من أضعف التلاميذ فى الرياضة »

قال الأستاذ ميرس : إن حالة الأستاذ (ستافورد) أعجب مما تقدم وهو الآن أستاذ فى علم الفلك لايعلو عن أقرانه فى الحساب العقلى ، مع أنه كان وهو فى

العاشرة من عمره يعمل غيباً وبدون أن يخطىء مسائل من الضرب حاصلها يتكون من ٣٦ رقما

قال وكان للستر (فان . ر . دوتيكا) وهو فى السادسة من عمره خاصة فى الحساب العقلى ممتازة زالت بعد سنتين ، ولم يكن هو نفسه يدرى على أى أسلوب تسير فى نفسه هذه الأعمال الحسابية

قال الأستاذ ميرس : «وكان (بوكستود) يحل مسائله وهو يتكلم حرا فيما تريد الكلام فيه مما هو خارج عن الحساب الذى ألقى إليه»

قال وحكى الرياضى المشهور (أراغو) عن نفسه فقال :

«اعتدت أنى بدلا من أن أجهد نفسى فى فهم مسألة فى الجلسة التى ألقيت إلى فيها كنت أسلم مؤقتا بأنها صحيحة ، فأذا جاء اليوم التالى أدهش من فهمى كل الفهم لما كان قد ظهر لى معضلا فى اليوم السابق»

وقال ميرس وروى (كوندياك) أنه كان غالبا يجد أن عملا لم يتم بالأمس قد تم اليوم فى عقله بدون جهد منه

قال وقد روى المسيو (رينه) الشاعر للدكتور (شابانيكس) بأنه قد ينام غالبا وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم ، فيستيقظ فيجدها تامة فى اليوم التالى عندما يفكر فيها

قال وقد كتب الشاعر المشهور (موسيه) عن نفسه يقول : «لا أعمل شيئاً ولكنى أسمع فأنقل . فكأن إنسانا مجهولا يناجينى فى أذنى»

وكتب لامارتين الشاعر الفرنسى الكبير يقول : «لست أنا الذى يفكر ، ولكن هى أفكارى التى تفكر لى»

قال ميرس : وكان سانت سانس مثل سقراط يسمع بأذنيه ما تلقيه الروح إليه

وقد أثبت الباحثون فى النفس من ناحية اتصالها بالأرواح المجردة ، أن هذا الاتصال ممكن حتى والانسان فى حالته الاعتيادية ، كما يحدث من استيلاء

روح على يد إنسان والكتابة بها ، بينما يكون صاحب هـــذه اليد مشغولا بالكلام مع إخوانه ، وقد شهد رجال من علماء الناس بأن لهم هذه الخاصة ، وقد أشهدوها لمئات من الباحثين ، فقد كان زعيم الصحافة الأنجليزية المستر (ستيد) واحدا من هؤلاء ، ومثله الكاتب الفرنسى المشهور (ساردو) فقد كانت تستولى على يده قوة خفية لا يستطيع مقاومتها ، وتحدث صورا تعد من نوادر الفن ، على حين أنه هو نفسه فى حالته الاعتيادية لا يستطيع رسم أبسط الأشياء ، وقد حفظت هـــذه الصور فى دار الآثار الروحية ولا تزال بها إلى اليوم ، فى المجمع الروحانى العلمى بباريس

وقـــد ثبتت كل هذه الأمور ثبوتا علميا لا يدع محلا للشك فى نفس أى باحث يريد الوصول إلى الحقيقة

وإذا ثبت كل هذا ، فالنتيجة المباشرة له تكون هذه : وهى إن للمعرفة طريقا باطنية غير طريق الحواس ، تستطيع أن تحصل منها النفس على معارف قد تكون أقوم مما تحصله لها المشاعر ، ويسهل من هذا الطريق فهم الوحى ، الذى كان ينزل على الأنبياء عليهم السلام ، فإنه إذا تقرر إمكان اتصال أرواح إنسانية مجردة بالشخص وإمداده بالمعلومات ، فيسهل تصور اتصال أرواح ملكية ببعض الناس ، وإمدادهم بمعارف علوية لهداية الخلق ، فيكون العصر الذى نعيش فيه قد آتى الإنسان بدليل على النبوات من طريق الحس ، لم يكن لآبائنا الأولين ، الذين لم تتعد أدلتهم القضايا المنطقية

نكتفى هنا بهذا القدر ، فى هذا الموضوع الخطير ، ولعلنا نوفق فى العود إليه متى أمكنتنا منه الفرص . و بالله التوفيق ؟

محمد فريد وجدى

(المعرفة) لعل أستاذنا الجليل يتفضل علينا فيزيدنا علما بهذا البحث القيم ، حتى نستطيع تبيان الفروق بين من يرون المعرفة معلقة على الحواس ومن يرونها معلقة على النفس والروح ؟